الحركة التفسيرية في الأندلس بين التأثر والتأثير (الإمام القرطبي نموذجا)

Mouvement d'interprétation en Andalousie entre L'Affecté Et influence (Imam Al-Qurtubi comme modèle)

محمد أرارو

أستاذ في التعليم العتيق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية تطوان–المغرب.

mohamed.said.ararou@gmail.com

ملخص:

يعد تفسير الإمام القرطبي المسمى: "**الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان**" من أهم التفاسير وأعظمها جمع فيه صاحبه ما تفرق في غيره، فهو موسوعة علمية عظيمة في التفسير، كما أنه يعد من أجل التفاسير الفقهية التي اعتنت باستنباط الأحكام الشرعية من نصوص القرآن الكريم، ومما يميزه عن غيره من تفاسير الأحكام أنه لم يقتصر على تأويل آيات الأحكام فحسب، بل إن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى يتوسع في شرح الآيات وبيان ما تحتمل من أوجه، ثم يختم ذلك باستخراج الأحكام والفوائد المشتملة عليها.

وفي هذا البحث سأقتبس بعض الإيضاءات من هذا التفسير العظيم، يتبين من خلالها مدى تأثر الحركة التفسيرية في الأندلس بنظيرتها المشرقية مهد نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهل حصل العكس بأن تأثرت المشرقية بعد ذلك بالمغربية؟ خصوصا وأنه قد كان هناك مفسرون جهابذة أمثال ابن العربي المعافري، وابن عطية، والقرطبي...، ونظرا لضيق الوقت فقد اقتصرت لإنجاز هذا البحث القصير على نموذج واحد لذلك، وهو تفسير الإمام القرطبي رحمه الله، ووقع الاختيار عليه نظرا لأنه عاش أول زمانه في المغرب الإسلامي "الأندلس"، وآخر حياته بالمشرق الإسلامي "مصر".

الكلمات المفتاحية: مكانة تفسير الإمام القرطبي، منهج تفسير الإمام القرطبي، التأثر، التأثير، نماذج.

Résumé:

L'interprétation de l'Imam al-Qurtubi appelée: «La compilation des décisions du Coran et la clarification de ce qu'elle contient de la Sunna et de l'ayat al-Furqan» est l'une des interprétations les plus importantes et les plus importantes dans lesquelles son auteur compilé ce qui a été divisé en d'autres, car il s'agit d'une grande encyclopédie scientifique de l'exégèse. Les textes du Noble Coran, et ce qui le distingue des autres interprétations des décisions, c'est qu'il ne se limite pas à l'interprétation des versets des décisions seulement. , Imam al-Qurtubi, que Dieu

Tout-Puissant ait pitié de lui, développe l'explication des versets et clarifie les aspects qu'ils peuvent porter, puis conclut cela en extrayant les décisions et les avantages qui les contiennent.

Dans cette brève étude, je citerai quelques aperçus de cette grande interprétation, à travers laquelle il devient clair à quel point le mouvement exégétique en Andalousie a été affecté par son homologue oriental, le berceau de la révélation de notre maître Muhammad, que les prières et la paix de Dieu soyez sur lui, et est-ce que le contraire s'est produit lorsque le Levantin a été influencé par la suite par le Maghribiya? D'autant qu'il y avait des commentateurs experts tels qu'Ibn al-Arabi al-Ma'afari, Ibn Atiyya et al-Qurtubi ..., et en raison du manque de temps, ils se sont limités à compléter cette brève recherche sur un exemple de cela. , qui est l'interprétation de l'Imam al-Qurtubi, que Dieu ait pitié de lui, et le choix lui est tombé car il a vécu dans les premiers jours de sa vie. Le Maghreb islamique, "l'Andalousie", et sa dernière vie dans le Orient islamique, "Egypte."

Mots clés : Le statut de l'interprétation de l'Imam al-Qurtubi, l'approche de l'interprétation de l'Imam al-Qurtubi, affecté, l'influence, Formes.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم، وبعد: فإن علم التفسير يعتبر من أهم العلوم الشرعية وأشرفها، لأن أهمية الشيء تظهر حسب الموضوع المتكلم فيه، وموضوع علم التفسير هو الحديث عن القرآن الكريم الذي هو كلام الله عز وجل، ومما هو معلوم أن علم التفسير نشأ في المشرق الإسلامي مهد نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأخذه عنه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ثم تفرقوا في البلدان وأخذ عنهم التابعون وهكذا تتابع الأمر بأخذ اللاحق عن السابق، حتى وصل التفسير إلى الغرب الإسلامي مع التابعين ولعل مدرسة عبد الله بن عباس رضي الله عنه التفسيرية المكية، كان لها الأثر البالغ على الحركة التفسيرية في منطقة الغرب الإسلامي الكبير، فعن طريق أحد أكبر تلاميذه الذي هو عكرمة مولاه (ت105هـ)، دخل علم التفسير إلى الغرب الإسلامي، ثم انتشر في عدوتي المغرب والأندلس، وكان للحركة التفسيرية في هذه البلاد نشاطها الكبير، وارتحل علماؤها إلى المشرق لطلب العلم والحج والاعتمار فأخذوا عن نظرائهم المشارقة ورجعوا بعلم غزير وتأثروا بهم تأثرا كبيرا وخصوصا في المنحى العقدي، إلا أن مفسري الغرب الإسلامي ونظرا لمكانتهم العلمية كان لهم الأثر البالغ فيمن جاء بعدهم.

وفي هذا البحث القصير سأقتبس بعض الإيضاءات من هذا التفسير العظيم، يتبين من خلالها مدى تأثر الحركة التفسيرية في الأندلس بنظيرتها المشرقية مهد نزول الوحي على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهل حصل العكس بأن تأثرت المشرقية بعد ذلك بالمغربية؟ خصوصا وأنه قد كان هناك مفسرون جهابذة أمثال ابن العربي المعافري، وابن عطية، والقرطبي...، ونظرا لطبيعة الموضوع المحدد بكم معين قد اقتصرت على نموذج واحد لذلك، وهو تفسير الإمام القرطبي رحمه الله، ووقع الاختيار عليه لكونه عاش أول زمانه في المغرب الإسلامي (الأندلس)، وآخر حياته بالمشرق الإسلامي

(مصر)، وبذلك يكون محققا للمقصد من البحث الذي هو إبراز التأثير والتأثر بين الحركة التفسيرية في القطرين الأندلسي والمشرقي.

وقبل الدخول إلى موضوع البحث أرسم الخطة التي سأسير عليها، وقد أتت في مقدمة ومبحثين تحت كل مبحث مطلبين وخاتمة:

المقدمة: خصصتها للحديث عن التقديم العام لحقل البحث وبيان أهميته، مع تقديم مختصر لتفسير الإمام القرطبي وبيان اسمه الكامل واسم شهرته.

ثم جاء المبحثان على الشكل الآتي:

المبحث الأول– مكانة تفسير الإمام القرطبي ومنهجه فيه، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: مكانة تفسير الإمام القرطبي.

المطلب الثاني: منهج الإمام القرطبي في تفسيره.

المبحث الثاني– الإمام القرطبي بين التأثير والتأثر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تأثر الإمام القرطبي بمن سبقه وتأثيره فيمن أتى بعده من المفسرين.

المطلب الثاني: نماذج في بيان المنحى العقدي للإمام القرطبي في تفسيره.

خاتمة: ذكرت فيها ما توصلت إليه من خلاصات واستنتاجات.

المبحث الأول– مكانة تفسير الإمام القرطبي ومنهجه فيه

المطلب الأول– مكانة تفسير الإمام القرطبي ومصادره

أولا– مكانة تفسيره:

يعد الإمام الكبير العامل العلامة المحدث أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي ثم القرطبي (ت671هـ)[1]، رضي الله عنه، من أبرز علماء الأندلس الذين كان لهم الأثر الكبير فيمن جاء بعدهم، والذي سهل حصول هذا التأثر لأهل المشارق بهذا الإمام وتفسيره ارتحاله عن الأندلس إلى المشرق الإسلامي بعد سيطرة النصارى عليها، فخرج فيمن خرج من أهلها، واستقر به الحال في مدينة أسيوط بمصر، فالتقى علماءها وأخذ عنهم وأخذوا عنه.

وغير خاف على المتخصصين في مجال التفسير أن تفسير الإمام القرطبي المسمى: "الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان"[2]. – كما سماه بذلك الإمام القرطبي نفسه في مقدمته–، والمشتهر باسم: "**الجامع لأحكام القرآن**"، يعد من أبرز التفاسير وأعظمها، جمع فيه صاحبه ما تفرق في غيره، فهو موسوعة علمية عظيمة في التفسير، كما أنه يعد من أجل التفاسير الفقهية التي اعتنت باستنباط الأحكام الشرعية من نصوص القرآن الكريم، ومما يميزه عن غيره من تفاسير الأحكام أنه لم يقتصر على تأويل آيات الأحكام فحسب، بل إن الإمام القرطبي رحمه الله تعالى يتوسع في شرح الآيات وبيان ما تحتمل من أوجه، ثم يختم ذلك باستخراج الأحكام والفوائد المشتملة عليها.

يقول الإمام الذهبي (ت748هـ) رحمه الله: الإمام، العلامة، أبو عبد الله الأنصاري، الخزرجي، القرطبي. إمام متفنن متبحر في العلم، له تصانيف مفيدة تدل على كثرة اطلاعه ووفور فضله. "وقد سارت بتفسيره العظيم الشأن الركبان، وهو كامل في معناه"[3].

وقال في حقه صاحب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية الشيخ محمد مخلوف (ت1360هـ) رحمه الله: "له تفسير كبير في اثني عشر مجلداً وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً أسقط منه القصص والتواريخ وأثبت أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ"[4].

وتفسير الإمام القرطبي يعتبر أحد أهم تفاسير الأحكام وأجلها، وأوسع تفسير فقهي، وقد نهج الإمام القرطبي فيه طريق الإنصاف وعدم التعصب لمذهبه المالكي، كما وصف الدكتور حسين الذهبي (ت1398هـ) رحمه الله طريقة صاحبه فيه قائلا: "وخير ما في الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكي، بل يمشي مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله ...، ثم أورد أمثلة دالة على إنصافه وعقب عليها بقوله: وعلى الجملة... فإن القرطبي رحمه الله في تفسيره هذا

حُرٌ في بحثه، نزيهٌ في نقده، عفٌ في مناقشته وجدله، مُلِمٌ بالتفسير من جميع نواحيه، بارع في كل فن استطرد إليه وتكلَّم فيه"[5].

ثانيا– مصادر تفسيره[6]:

إنه من الطبيعي أن يعتمد الإمام القرطبي في تفسيره النقل عن غيره ممن سبقه من أئمة التفسير والحديث والعقيدة والفقه واللغة ...، فهذا أمر لا يخلوا منه تأليف فكل عالم لابد وأن ينقل عن غيره ممن سبقه، والمهم هنا بيان معتمده من كتب التفسير، ومما ينبغي الإشارة إليه أن السمة التي ميزته رحمه الله والتزم بها، عنايته بنسبة الأقوال إلى أصحابها كما صرح بذلك في مقدمة تفسيره: "وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها..."[7].

وعليه فإن الإمام القرطبي رحمه الله قد أفاد من مؤلفاتِ كثيرٍ من المفسرين، وكان موقفه منهم أن يعرض آرائهم مكتفيا بهذا العرض أحيانا ومعقبا عليها ومناقشا لها ورادّاً لبعضها أحيانا أخرى ومن هنا ظهرت شخصيته في تفسيره ومن أهم تلك المؤلفات ما يلي:

1. **إعراب القرآن:** لأبي جعفر النحاس (ت338هـ) رحمه الله تأثر به في إعراب القرآن.
2. **معاني القرآن:** لأبي جعفر النحاس أيضا أفاد منه كثيرا ونقل عنه.
3. **جامع البيان في تأويل القرآن:** لأبي جعفر الطبري (ت310هـ) رحمه الله تأثر به كثيرا.
4. **التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل:** للمهدوي (ت430هـ) رحمه الله أفاد منه و تأثر به.
5. **النكت والعيون:** لأبي الحسن الماوردي (ت450هـ) رحمه الله نقل عنه وتأثر به كثيرا.
6. **شفاء الصدور:** لأبي بكر النقاش (ت351هـ) رحمه الله نقل عنه وتعقبه ورد عليه كثيرا.
7. **أحكام القرآن:** لأبي الحسن الطبري المعروف "بالكيا" (ت504هـ) رحمه الله لقد أفاد منه حتى إنه كان ينتصر لرأيه على ابن العربي.
8. **أحكام القرآن:** لأبي بكر بن العربي المعافري (ت543هـ) رحمه الله لقد أفاد منه وناقشه ورد تحامله وهجومه على المخالفين في مواضع كثيرة.
9. **الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه:** لمكي بن أبي طالب (ت437هـ) رحمه الله.
10. **مشكل إعراب القرآن:** لمكي بن أبي طالب أيضا. وقد تأثر به كثيرا.
11. **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل:** لأبي القاسم الزمخشري (ت538هـ) رحمه الله.
12. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز:** لابن عطية (ت542هـ) رحمه الله، وقد اعتمد الإمام القرطبي عليه اعتمادا كبيرا لدرجة يكاد يكون المفسر الوحيد الذي تأثر به، وجعله قدوته في فهم كتاب الله تعالى، إذ يكثر النقل عنه، فنادرا ما تجده يفسر آية ما دون النقل عن ابن عطية[8].

ومما يؤكد شدة تأثر القرطبي بابن عطية رحمهما الله ما نص عليه الإمام ابن خلدون (ت808هـ) رحمه الله في مقدمته المشهورة عند حديثه عن علم التفسير حيث قال: "فلمّا رجع النّاس إلى التّحقيق والتّمحيص وجاء أبو محمّد بن عطيّة من المتأخرين بالمغرب فلخّص تلك التّفاسير كلّها وتحرّى ما هو أقرب إلى الصّحّة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى. وتبعه القرطبيّ في تلك الطّريقة على منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالمشرق"[9].

المطلب الثاني– منهج الإمام القرطبي في تفسيره

إن العالم الذي يريد أن يتصدى للتأليف، ويتطلع إلى أن يكون حقيقا بحمل رسالة العلم، ومن ذويه وحماته، لابد له قبل البدء في التأليف أن تكون له صورة ذهنية لما يؤلف، فيتصور موضوع بحثه، وكيفية البدء فيه، وتقسيمه إلى أبواب وفصول، وما يحتاج إليه من مصادر معتمدة تغذي عقليته، وتخدم بحثه، وتدفعه نحو مصاف التأليف الإبداعي المبتكر، وتجعله واثقا ومتحققا مما سيقدمه لمن يأتي بعده من القراء والباحثين والمؤلفين[10].

ومفسرنا الإمام القرطبي وهو من علماء القرن السابع الهجري، لم يفته أن يتصور تصورا ذهنيا لما تناوله بالتأليف في مجالات التفسير والحديث والقراءات واللغة وغير ذلك، فهو يبين منهجه في مقدمة كتابه، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن علماءنا رضي الله عنهم كانوا يكتبون بالمنهج العلمي الموضوعي المنضبط، والإمام القرطبي كان عالما محققا متبعا للمنهج العلمي فيما يكتبه، فتجده يتكلم عن قضية من القضايا في موضع ما من تفسيره، فإذا تكرر نفس الموضوع يحيل القارئ على الرجوع إليه، وكذلك إن كان قد تحدث بالتفصيل عن موضوعٍ ما في أحد كتبه، وعرض له نفسه في الكتاب الذي شرع في تأليفه أحال عليه، فتراه مثلا في تفسيره يقول: وقد بسطنا هذا القول في كتاب: (الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العليا)[11].

وقد تكلف الإمام القرطبي رحمه الله ببيان منهجه في مقدمة تفسيره، ففيها يستعرض منهجه الذي ضمنه الحديث عن التفسير والقراءات واللغة والنحو والأحكام وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ إلى غير ذلك... فيقول في مطلع تفسيره بعد البسملة والحمدلة:

"وبعد فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع، الذي استقل بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيت أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنتي – أي قوتي–، بأن أكتب تعليقا وجيزا، يتضمن نكتا من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والرد على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعا بين معانيهما، ومبينا ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف"[12].

ثم يبين الإمام القرطبي الباعث له على كتابة هذا التفسير بقوله: "وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملا صالحا بعد موتي. قال الله تعالى: ﴿ينبؤا الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ [13]. وقال تعالى: ﴿علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ [14]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"[15] .

ولم يكتف الإمام القرطبي رحمه الله ببيان منهجه الذي سيسير عليه في هذا التفسير، بل زاد شيئا آخر وهو الشرط الذي شرطه على نفسه، كما يوضح ذلك بقوله: "وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: "من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله". وكثيرا ما يجئ الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهما، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائرا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يقبل منه الاحتجاج به، ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام. ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

وأضرب عن كثير من قصص المفسرين، وأخبار المؤرخين، إلا ما لا بد منه ولا غنى عنه للتبيين، واعتضت من ذلك تبيين آي الأحكام، بمسائل تفسير عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمنت كل آية لتضمن حكما أو حكمين فما زاد، مسائل نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير الغريب والحُكم، فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، هكذا إلى آخر الكتاب. وسميته ب: **"الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان"** جعله الله خالصا لوجهه، وأن ينفعني به ووالدي ومن أراده بمنه، إنه سميع الدعاء، قريب مجيب، آمين"[16].

ومن الطبيعي أن يعتمد الإمام القرطبي في تفسيره النقل عن غيره ممن سبقه من أئمة اللغة والتفسير وغيرهم، فهذا أمر لا يخلوا منه تأليف فكل عالم لابد وأن ينقل عن غيره ممن سبقه، والمهم هنا هو بيان معتمده في كتب التفسير، ومما تنبغي الإشارة إليه أن السمة التي ميزت الإمام القرطبي رحمه الله والتزم بها هي نسبتها الأقوال إلى قائلها كما وضح ذلك في مقدمة تفسيره السابقة، إلا أن السؤال الذي يمكننا طرحه هو هل التزم الإمام القرطبي بذلك؟ وأين يتجلى هذا الأمر تجليا واضحا؟ والإجابة عن هذين التساؤلين ستأتي في المبحث الثاني.

المبحث الثاني– الإمام القرطبي بين التأثير والتأثر، وفيه مطلبان

المطلب الأول– نماذج من مفسري المشارقة الذين تأثر بهم الإمام القرطبي

إنه من الطبيعي أن يتأثر العالم المؤلف بمن سبقه في جميع مجالات العلوم، ممن اقتنع بمنهجه وأسلوبه وظهر له أنه الصواب، كما أن العكس صحيح فعادي أن يتأثر به هو أيضا من سيأتي بعده من المؤلفين، ولم يكن الإمام القرطبي رحمه الله استثناء لهذه القاعدة، فقد تأثر بغيره واعتمد عليه، كما أن غيره أيضا تأثر به واعتمد عليه، ومن هنا كان من اللازم ذكر أهم المصادر التفسيرية التي كان لها الحضور الوازن في تفسيره، وخصوصا المشرقية منها، كما وجب أيضا ذكر نماذج من المفسرين الذين كان للإمام القرطبي الحضور الكبير في تفاسيرهم، ومن هنا أتى هذا المطلب في محورين:

وسأقتصر على ثلاثة نماذج من كبار مفسري المشرق الإسلامي، والذين كان لهم حضور وازن في هذا التفسير العظيم لإمامنا القرطبي رحمه الله.

النموذج الأول– تأثر الإمام القرطبي بالإمام ابن جرير الطبري (ت310هـ) في تفسيره: (جامع البيان في تأويل القرآن):

أولا– مقارنة منهجية بينهما:

إن المتأمل في تفسير كل من الإمام ابن جرير الطبري والإمام القرطبي رحمهما الله يجدهما يعتمدان بالدرجة الأولى على التفسير الأثري الذي هو تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين ومَن بعدهم من السلف الصالح، وحتى يتضح هذا المنحى في تفسيريهما أضع أمثلة على ذلك.

1. تفسير القرآن بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿ووجدك ضالا فهدى﴾[17]. قال الإمام القرطبي رحمه الله: أي: غافلا عما يراد بك من أمر النبوة، فهداك: أي أرشدك. والضلال هنا بمعنى الغفلة، كقوله جل ثناؤه: ﴿لا يضل ربي ولا ينسى﴾[18]؛ أي: لا يغفل. وقال في حق نبيه: ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾[19]. وقال قوم: ضالا لم تكن تدري القرآن والشرائع، فهداك الله إلى القرآن، وشرائع الإسلام، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان﴾[20] ، على ما بينا في سورة الشورى"[21].

فواضح من خلال كلامه هذا اعتماده في حل ألفاظ هذه الآية الكريمة على إيراد ما شابهها في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

2. تفسير القرآن بالسنة:

قال الله تعالى: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾[22] ، قال الإمام القرطبي: حسابا يسيرا: لا مناقشة فيه. كذا روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: "من حوسب يوم القيامة عذب". قالت: فقلت: "يا رسول الله أليس قد قال الله فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا". فقال: "ليس ذاك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب" أخرجه البخاري ومسلم والترمذي. وقال حديث حسن صحيح[23].

فقد وضح معنى الآية الكريمة بما يزيل الإشكال عنها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

3. تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

وهذا كثيرا ما ينهجه الإمام القرطبي في تفسيره، فهو مملوء بالنقل عن الصحابة الكرام والتابعين رضوان الله عليهم في بيان معاني الآيات، ومن ذلك: ما فعله عند بيانه لقوله تعالى: ﴿ووجدك ضالا﴾[24]. فينقل عن الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنه أنه قال: "ضل النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير في شعاب مكة، فرآه أبو جهل منصرفا عن أغنامه، فرده إلى جده عبد المطلب، فمن الله عليه بذلك، حين رده إلى جده على يدي عدوه".

ثم ينقل عن أحد كبار التابعين وهو سيدنا سعيد بن جبير رحمه الله قوله في نفس الآية: خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب في سفر، فأخذ إبليس بزمام الناقة في ليلة ظلماء، فعدل بها عن الطريق، فجاء جبريل عليه السلام، فنفخ إبليس نفخة وقع منها إلى أرض الهند، ورده إلى القافلة، فمن الله عليه بذلك[25].

هذا الأمر الذي رأيناه واضحا مع الإمام القرطبي من اعتماده على التفسير بالمأثور في الدرجة الأولى، هو نفسه الذي انتهجه الإمام ابن جرير الطبري فهو يعتمد على التفسير بالمأثور ويجعله من أولويات تفسيره العظيم، والفضل للسابق، ولنضع أمثلة لذلك:

1. تفسير القرآن بالقرآن:

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾[26] ، قال الإمام الطبري رحمه الله مبينا تخصيص النبي صلى الله عليه وسلم للظلم هنا بالشرك الوارد في آية أخرى بأنه ظلم عظيم: "اختلف أهل التأويل في المعنى الذي عناه الله تعالى بقوله: ﴿ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾. فقال بعضهم: بشرك. ثم ذكر بسنده إلى علقمة عن عبد الله قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾، شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا ترونَ إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[27] ؟.[28]

2. تفسير القرآن بالسنة:

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾، قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: فأما من أعطي كتاب أعماله بيمينه، ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، بأن ينظر في أعماله، فيغفر له سيئها، ويُجازى على حُسنها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل وجاء الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم ذكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: سمعت

النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "اللَّهُمَّ حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا" قلت: يا رسول الله ما الحساب اليسير؟ قال: "أن يُنْظَرَ فِي سَيِّئَاتِهِ فَيُتَجَاوَزُ عَنْهُ، إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَئِذٍ هَلَكَ"[29].

3. تفسير القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

قال الله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[30]، قال الإمام الطبري: ومعنى الآية في هذا الموضع عندنا: وَفِّقْنا للثبات عليه، كما رُوي ذلك عن ابن عباس[31].

وفي بيان قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى﴾، قال الإمام الطبري: أي: ووجدك على غير الذي أنت عليه اليوم. ثم نقل عن الإمام السديّ أنه قال: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالا﴾، كان على أمر قومه أربعين عاما[32]. فواضح مما سبق توافق الإمامين الطبري والقرطبي في منهجهما الأثري في التفسير.

ثانيا– اعتماد الإمام القرطبي النقل عن الإمام الطبري:

إنه من الجلي لمن تأمل في تفسير الإمام القرطبي أنه سيلحظ الحضور الوازن لتفسير الإمام ابن جرير الطبري، وليتبين الأمر بشكل أوضح أذكر مثالين لذلك:

المثال الأول– قول الإمام القرطبي عند تفسيره لسورة الفاتحة: الباب الرابع فيما تضمنته الفاتحة من المعاني والقراءات والإعراب وفضل الحامدين، وفيه ست وثلاثون مسألة الخامسة ذهب أبو جعفر الطبري وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء، وليس بمرضي. وحكاه أبو عبد الرحمن السلمي في كتاب: "الحقائق" له عن جعفر الصادق وابن عطاء. قال ابن عطاء: معناه الشكر لله، إذ كان منه الامتنان على تعليمنا إياه حتى حمدناه. واستدل الطبري على أنهما بمعنىً بصحة قولك: الحمد لله شكرا. قال ابن عطية: وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك شكرا، إنما خصصت به الحمد، لأنه على نعمة من النعم.

فمن خلال هذا النقل للإمام القرطبي تتجلى لنا أمور:

أولها: نقله عن الطبري واعتماده عليه.

ثانيها: تأثره بابن عطية حتى أنه رجح رأيه في توجيه قول الطبري.

ثالثها: وهو أهمها الحضور الكبير لتفسير ابن جرير الطبري في التفاسير الأندلسية وتأثرهم الكبير به، وهذا لا يعني أنهم كانوا حطاب ليل آخذين كل ما جاءهم من الشرق، بل كانوا يضعونه في ميزان القواعد والعلوم فما كان مقبولا مستساغا قبلوه، وإلا ردوه ورجحوا غيره، وهذا يبرز لنا أهمية التفاسير الأندلسية وطول باع أصحابها في علم التفسير.

المثال الثاني– قول الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ويدعوننا رغبا ورهبا﴾[33] فيه مسألتان... المسألة الثانية: روى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه... إلى أن قال: قال أبو جعفر الطبري: "والصواب أن يقال: إن كل هذه الآثار المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعاني، وجائز أن يكون ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس: إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلي وجهه فهو الابتهال. قال الطبري: وقد روى قتادة عن أنس قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما[34].

النموذج الثاني– تأثر الإمام القرطبي بالإمام الماوردي (ت450هـ) في تفسيره: (النكت والعيون):

إن الناظر في تفسير الإمام القرطبي يجد حضورا قويا لتفسير الإمام الماوردي، فقد أكثر النقل عنه، وأحيانا كثيرة رجح وفق رأيه وجعل قوله خلاصة ما يقال في الآية، وسآتي لذلك بمثالين:

1. فعند تفسير قوله تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون﴾[35] قال القرطبي: قال الماوردي: واختلف في بقاء تكليف من أعيد بعد موته ومعاينة الأحوال المضطرة إلى المعرفة على قولين: أحدهما: بقاء تكليفهم لئلا يخلو عاقل من تعبد. الثاني: سقوط تكليفهم معتبرا بالاستدلال دون الاضطرار. قلت: والأول أصح فإن بني إسرائيل قد رأوا الجبل في الهواء ساقطا عليهم والنار محيطة بهم وذلك مما اضطرهم إلى الإيمان وبقاء التكليف ثابت عليهم ومثلهم قوم يونس. ومحال أن يكونوا غير مكلفين.[36]

2. وفي تفسير قوله تعالى في سورة محمد: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾[37] قال الإمام القرطبي رحمه الله: نقلا عن الإمام الماوردي رحمه الله أنه قال: وفيه– وإن كان الرسول عالما بالله– ثلاثة أوجه: يعني اعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني– ما علمته استدلالا فاعلمه خبرا يقينا. الثالث– يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبر عن الذكر بالعلم[38].

النموذج الثالث:

الإمام جار الله الزمخشري (ت538هـ) رحمه الله، وتفسيره: "**الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**":

فقد كان للزمخشري حضورا واسعا في تفسير الإمام القرطبي، وخصوصا في الجانب اللغوي والبلاغي، ولتوضيح ذلك أعطي مثالين حتى يتم البيان، وبالمثال يتضح المقال:

قال الله تعالى: ﴿وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا﴾[39]، قال الإمام القرطبي رحمه الله ناقلا عن الإمام الزمخشري رحمه الله أنه قال: "حنانا" رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة[40].

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿ولها عرش عظيم﴾[41] قال الإمام القرطبي: أي سرير، ووصفه بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان. قال الزمخشري: فإن قلت كيف سوى الهدهد بين عرش بلقيس وعرش الله في الوصف بالعظيم؟ قلت: بين الوصفين بون عظيم، لأن وصف عرشها بالعظيم تعظيم له بالإضافة إلى عرش أبناء جنسها من الملوك، ووصف عرش الله بالعظيم تعظيم له بالنسبة إلى ما خلق من السماوات والأرض[42].

المطلب الثاني– أثر تفسير الإمام القرطبي ومكانته عند المفسرين بعده

لقد اعتنى المفسرون والعلماء عناية فائقة بتفسير الإمام القرطبي العظيم، فنقلوا عنه كثيرا واعتمدوه في مؤلفتهم، والذي نريد إثباته هنا هو أن لهذا التفسير تأثيرا كبيرا على الحركة التفسيرية في المشرق الإسلامي، وقد سهل هذا الأمر هو انتقال الإمام القرطبي إلى مصر.

ولبيان هذا التأثير أضرب بعض الأمثلة فقد اختَصر هذا التفسير "**الجامع لأحكام القرآن**" الإمام سراج الدين عمر بن علي بن الملقن الشافعي (ت804هـ) رحمه الله[43].

كما كان له الأثر الكبير على مفسري القرآن الكريم ممن جاءوا بعده، "فنقلوا عنه وأشاروا غلى أهميته وعظم فائدته، إيمانا منهم بقيمته، وشهادة منهم بأن له مكانة علمية رائعة عند الباحثين والمفكرين"[44]. وسأقتصر على ذكر بعض النماذج من ذلك على وجه التمثيل لا الحصر، ومن ذلك ما يلي:

النموذج الأول:

الإمام ابن قيم الجوزية فقد نقل عن افمام القرطبي ما يتعلق بالاستواء وذلك في كتابه: (الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة)[45].

النموذج الثاني:

الإمام ابن كثير (ت774هـ) رحمه الله، فقد اعتمد على تفسير القرطبي اعتمادا كبيرا، يظهر ذلك جليا لمن راجع تفسيره المسمى: "**تفسير القرآن العظيم**". ومن ذلك:

ما ذكره عند تفسيره لسورة الفاتحة ناقلا عن الإمام القرطبي أنه قال في تفسيره: وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتي ثم قال: الحمد لله، لكان الحمد لله أفضل من ذلك". قال القرطبي وغيره: أي لكان إلهامه الحمد لله أكبر نعمة عليه من نعم الدنيا؛ لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾[46]."[47].

النموذج الثالث:

الإمام الشوكاني (ت:250هـ) رحمه وذلك في كتابه: "**فتح القدير– الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**" فالمتأمل في هذا التفسير يرى الحضور الكبير لتفسير الإمام القرطبي، ومن ذلك:

قوله عند تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿العالمين﴾[48]: جمع العالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى قاله قتادة. ثم ذكر أقوالا كثيرة وعقب عليه بقوله: حكى هذه الأقوال القرطبي في تفسيره وذكر أدلتها وقال: إن القول الأول أصح هذه الأقوال لأنه شامل لكل مخلوق وموجود، دليله قوله تعالى: ﴿قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما﴾[49] ، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على موجده، كذا قال الزجاج. وقال: العالم: كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة، انتهى.

ثم قال أيضا عند تفسيره قوله تعالى: ﴿الرحمن الرحيم﴾[50] قد تقدم تفسيرهما. قال القرطبي: وصف نفسه تعالى بعد رب العالمين بأنه الرحمن الرحيم، لأنه لما كان في اتصافه برب العالمين ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب، ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه، فيكون أعون على طاعته وأمنع[51].

خاتمة:

وفي الأخير يمكن تلخيص ما توصلت إليه في هذا البحث من استنتاجات حسب ما يلي:

- إن الحركة التفسيرية في الغرب الإسلامي وفي الأندلس على الخصوص، تأثرت تأثرا كبيرا بنظيرتها في المشرق الإسلامي، وذلك طبيعي لأن المشرق هو مهد نزول الوحي، وفيه نشأ علم التفسير، ومنه انتقل إلى الأقطار الأخرى.
- دخل علم التفسير إلى الغرب الإسلامي بعد الفتح الإسلامي عن طريق علماء التابعين ومن جاء بعدهم من أعلام الأمة ومفسريها خصوصا تلاميذ ابن عباس، ثم بدأت الرحلات المغربية إلى المشرق للحج والعمرة وطلب العلم، وكان لذلك الأثر البالغ في وقوع التأثر والتأثير بين الطرفين.
- كان لبعض تفاسير المشرق الإسلامي حضورا وازنا في تفاسير الأندلس، وذلك مثل "تفسير يحي ابن سلام"، وتفسير الإمام ابن جرير الطبري "جامع البيان في تأويل القرآن"، وتفسير الماوردي "النكت والعيون"، وتفسير الزمخشري "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل"، وتفسير الإمام الرازي "مفاتيح الغيب" المعروف بالتفسير الكبير، وغير ذلك...
- إن الإمام القرطبي تأثر تأثرا كبيرا بمن سبقه من مفسري الغرب الإسلامي كالإمامين: ابن عطية وابن العربي، ومن المشارق أمثال الطبري والماوردي والزمخشري. كما أنه تأثر به من جاء بعده أمثال ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

الهوامش:

1- القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في تفسيره للدكتور مفتاح السنوسي، ط1. دار الكتب الوطنية بنغازي: 1998م، ص.84

2- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط2، دار الكتب المصرية: 1964م، ج1، ص3.

3- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي، ط2. دار الكتاب العربي بيروت: 1413هـ/ 1993م. ج50، ص74.

4- شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط1. دار الكتب العلمية:2003م، ج1، ص282.

5- التفسير والمفسرون للدكتور محمد السيد حسين الذهبي، ط: مكتبة وهبة، القاهرة، ج2، ص338 و341.

6- ينظر على سبيل المثال: القرطبي ومنهجه في التفسير لمحمود زلط: 123. والقرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير للسنوسي بلعم: 197.

7- الجامع لأحكام القرآن: 1 / 3.

8- ينظر لمزيد من التفصيل : القرطبي ومنهجه في التفسير لمحمود زلط: 429. وكتاب: القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير لمفتاح لسنوسي بلعم: 201.

9- مقدمة ابن خلدون: 530. تحقيق: حامد أحمد الطاهر. ط: 1. دار الفجر للتراث: 1434هـ.

10- القرطبي حياته وآثاره العلمية، ص215.

11- وللتفصيل في هذه المسألة ينظر المرجع السابق نفسه بنفس الصفحة.

12- الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص2.

13- سورة القيامة : 13

14- سورة الانفطار : 5.

15- الجامع لأحكام القرآن، ج1، ص2.

16- المصدر السابق نفسه، ج1، ص3.

17- الضحى : 7.

18- طه : 52.

19- يوسف: 3

20- الشورى : 52.

21- الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص98.

22- الانشقاق : 8.

23- الجامع لأحكام القرآن، ج19، ص272.

24- الضحى : 7.

25- الجامع لأحكام القرآن ، ج20، ص97.

26- الأنعام : 82.

27- لقمان : 13.

28- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة، ج11، ص494.

29- المصدر السابق نفسه، ج24، ص313.

30- الفاتحة : 7.

31- جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، المصدر السابق نفسه، ج1، ص166.

32- المصدر السابق نفسه، ج24، ص488.

33- الأنبياء : 99.

34- الجامع لأحكام القرآن: 11 / 336 – 337.

35- البقرة : 56.

36- الجامع لأحكام القرآن: 405/1.

37- محمد : 19.
38- الجامع لأحكام القرآن : 241/16.
39- مريم : 13.
40- الجامع لأحكام القرآن، المصدر السابق نفسه: 87/11.
41- النمل : 23.
42- الجامع لأحكام القرآن، المصدر السابق نفسه: 184/13.
43- القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، ص: 291.
44- القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في التفسير، ص: 287.
45- الصواعق المرسلة لابن القيم، ج2، ص324.
46- الكهف : 46.
47- تفسير القرآن العظيم لابن كثير: 1/ 130. تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط: 2. دار طيبة للنشر والتوزيع: 1999م.
48- الفاتحة : 1.
49- الشعراء : 23-24.
50- الفاتحة : 2.
51- فتح القدير للشوكاني: 1/ 25. ط: 1. دار ابن كثير:1414هـ.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرطبي حياته وآثاره العلمية ومنهجه في تفسيره للدكتور مفتاح السنوسي، ط1. دار الكتب الوطنية بنغازي: 1998م.
2. الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. ط2، دار الكتب المصرية: 1964م.
3. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي، ط2. دار الكتاب العربي بيروت: 1993.
4. شجرة النور االزكية لمحمد مخلوف، علق عليه: عبد المجيد خيالي، ط1. دار الكتب العلمية: 2003م.
5. التفسير والمفسرون للدكتور محمد السيد حسين الذهبي، ط: مكتبة وهبة، القاهرة.
6. جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، ط: مؤسسة الرسالة.
7. تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة. ط2. دار طيبة للنشر والتوزيع: 1999م.
8. فتح القدير للشوكاني، ط1. دار ابن كثير: 1414هـ.
9. النكت والعيون لأبي الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، ط: دار الكتب العلمية-بيروت.
10. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل لأبي القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، ط3: دار الكتاب العربي-بيروت:1407هـ.